الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الشكرلاني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٣٤ — الثلاثاء ١٩ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ٢٢ من يونيه سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

صفحة			صفحة		
٤	الكومنترن	للدكتور محمد عوض محمد	١٤	صورتان	للأستاذ شفيق جبري ...
٥	بناء الفكر ، ووظيفة دوائه : المعجزة تتحقق	« أحمد زكي بك ...	١٦	تربية السرور	للدكتور محمد مندور ...
٩	سيطرة الشعب وسيادة الأدب	للأستاذ ع ح	١٨	نجاة	« عبد اللطيف حمزة
١٠	الشيخ رفاعة الطهطاوي ...	« أحمد أمين بك	٢٢	سيرة أحمد بن طولون ...	للأديب السيد أحمد صقر
			٢٤	الضيعة الشاكية	... ...
			٢٤	منتدى الوحدة [قصيدة]	للأديب محمد الجندي ...

إلغاء الكومنترن

للدكتور محمد عوض محمد

إذا قسمنا العالم إلى وحدات سياسية ، تفصل ما بينها حدود واضحة المعالم كأنها جدران تحيط بكل وحدة من جميع أطرافها ، فإن تقسيمنا هذا يسمى تقسيماً رأسياً ، لأن كل حد من الحدود بمثابة حائط قائم ، يعزل كل وحدة عن جاراتها ، ويجعل لها وجوداً مستقلاً . وكثيراً ما تكون هذه الحدود حقيقة كالحائط المنيع ، كما هي الحال في جبال البرانس بين فرنسا وإسبانيا . ولكن سواء أوجدت تلك الجدران الطبيعية ، أو أقيمت مكانها حدود واضحة من نوع آخر ، فإن العالم على كل حال مقسم تقسيماً رأسياً ، يعزل كل دولة في داخل حيز معروف ، وفي داخل حدود واضحة .

ولكن كل دولة تشتمل على طبقات بعضها فوق بعض ، وهذا النظام الطبقي ، يقسم كل دولة تقسيماً أفقياً . سواء أكان هذا التقسيم قائماً على الثروة والمال ، أو على الجاه والسلطان ، أو على العلم والعرفان . ومن ثم جاز للناس أن يتحدثوا عن طبقة السادة والسوقة والأحرار والعبيد ، والعلماء والجهال ، وأصحاب الأعمال والعمال . ولقد ذهب بعض الشعوب في هذا التقسيم الأفقي مدى بعيداً بأن ألزمت كل فرد أن يزاول مهنة أبيه ، وأن يظل هكذا في طبقته فلا يبرحها ، ولا يخترق الفاصل الطبقي ، وإلا خرج على العرف والدين والتقاليد .

وهذه الطبقات في داخل كل أمة ليست متشابهة تماماً للطبقات في كل أمة أخرى ، ولكنّ هناك تشابهاً كبيراً في التقسيم الطبقي بين كثير من الأمم ، وهذا التشابه واضح كل الوضوح بوجه خاص في الأمم الكبيرة التي تمتاز بها العصور الحديثة .

ووجود أقسام أو طبقات متشابهة في كثير من الدول كان من شأنه أن خلق تقسيماً أفقياً في العالم ، وأخذ

الناس يتحدثون عن طبقات الحكام ، وطبقات العمال ، وطبقات العلماء وغير ذلك من الاصطلاحات ، التي تخطط العالم كله ، وبصرف النظر فيها عن الحدود السياسية التي تفصل بين الدول .

ولم يكن بد على مدى الزمن من أن تدرك هذه الأقسام المتشابهة ما بينها من الروابط وأن تسعى في أن يتصل بعضها ببعض ، وأن يشملها نوع من النظام المشترك . وقد ساعدت سهولة النقل وسرعة السفر بالوسائل الحديثة ، على الاتصال بين هذه الطبقات . وكانت الطوائف العليا أسرع الطبقات إلى التآخي ، أو على الأقل إلى التظاهر بمظهر الإخاء . فقد كان ملوك أوربا في الأزمنة الحديثة ، يتخاطبون بيا أخي ، أو — في أحوال خاصة — يا ابن عمي . ولم تلبث بعد ذلك الجماعات الأخرى أن تتصل بعضها ببعض ، ويلتقي أصحاب الطرق الواحدة أو الأغراض المتشابهة ، من كل بلد أو من كل بلدين أو ثلاثة ، فيأتمرون في شئونهم ، ثم يعودون كل منهم إلى بلده ، لكي يسعى في تنفيذ ما اتفقوا عليه أو اقترحوه بقدر الإمكان .

والعادة أن يكون قوام النظام الدولي لكل طبقة شيئين : أولهما مؤتمر دولي يجتمع في دورات منتظمة ، والثاني مكتب دولي له مقر ثابت في مكان من الأمكنة ، وتعمل فيه سكرتيرية دائمة ، هي حلقة الاتصال بين الجماعات المشتركة في هذا النشاط الدولي الخاص .

وسيقول قائل إن هذه الأقسام الأفقية الدولية تضر بالاستقلال القومي ، وتنقص منه نقصاً شديداً . ولكن هذا يتوقف إلى حد كبير على نوع الطائفة ونزعتها . فإن اتحاد الشعراء مثلا إذا اجتمع كل عام لكي ينظر في الوزن والقافية ، وما يجوز للشاعر دون الناثر ، لا يمكن أن يضر بالاستقلال السياسي ضرراً بيناً .

والاتحاد الدولي للبريد نعمة من أكبر النعم على جميع سكان العالم . وإذا حد من استقلال أمة بأن منعها من العبث ببريد أية دولة أخرى ، فإن في هذا خيراً كثيراً للجميع .

والمذهب الكاثوليكي هو من غير شك من النظم الدولية ، لأنه يخترق الحدود السياسية في العالم القديم والجديد ، ولا بد لكل حكومة تريد أن تضطهد هذا المذهب ، أن تدرك أنها بعملها هذا تجرح شعور حكومات وشعوب عديدة . ومثل هذا يقال أيضاً عن اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم .

وصفوة القول إن هذا النشاط الدولي لطوائف عديدة ، يخترق نظامها الحدود السياسية ، لن يكون له أدنى ضرر باستقلال أية دولة ذات نظام داخلي متين . وبعض هذا النشاط كان خير وسيلة لتنظيم الصلات والروابط بين الأمم وإزالة ما بينها من الخلافات ، لو تركت [illegible] عواقب وخيمة .

* * *

والكومنترن مظهر من مظاهر هذا النشاط الدولي ، التي تخترق الحدود السياسية . ولفظ كومنترن اختصار لكلمتين كومونست (شيوعي) وانترناسيونال (دولي) ، أي الرابطة الشيوعية الدولية ، وهي الهيئة التي جاهرت ألمانيا بعدائها ، وألفت « اتحاداً » من بعض دول لمناهضتها ، والتي طالبت روسيا في الشهر الماضي من المشتركين فيها إلغاءها .

والكومنترن يدعى أيضاً باسم « الهيئة الدولية الثالثة » . وقد سبقتها هيئة أولى وثانية ، وهي كلها ذات صبغة اشتراكية أو شيوعية ، وقوامها الطبقات العاملة التي تشتغل في المصانع ، وقد أضيفت إليها بعد ذلك طبقة الفلاحين .

وقد تأسست الهيئة الدولية الأولى في عام ١٨٦٤ ، بتأثير التعاليم الصادرة من كارل ماركس وإنجلس . وكان

كلاهما من أعضائها العاملين . ولكن الجو لم يكن ملائماً لإنشاء مثل تلك الهيئة . وطبقات العمال لم تبلغ الرتبة التي تمكنها من تنظيم مثل تلك الحركة . ولذلك سارت سيرة عرجاء منذ إنشائها ، إلى أن طويت في عالم النسيان ، بعد إنشائها بعشر سنين.

وأسست الدولية الثانية عام ١٨٨٩ ، بعد وفاة الأولى بخمسة عشر عاماً . وكانت خليطاً من العناصر الاشتراكية والشيوعية ، ولكن تغلب عليها الصفة الأولى . وكانت أحزاب العمال والجماعات الاشتراكية قد أخذت تظهر في كثير من دول أوربا وتتألف منها أحزاب سياسية منظمة.

وازدادت الدولية الثانية قوة ونشاطاً حتى كان من بين أعضاء مكتبها في عام ١٩١٢ أشخاص عظماء مثل ابى ، وإيبرت الذي صار رئيس الجمهورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى . وستاونج الذي أصبح فيما بعد رئيس حكومة السويد ، ورمزى مكدونالد الذي صار رئيس الحكومة البريطانية نفسها . وقد عنيت هذه الهيئة عناية خاصة بالسياسة الدولية ، وبالعمل على منع الحروب . ولكن النزعات القومية تغلبت عليها ، واشتعلت الحرب العالمية الأولى بالرغم منها . وخمدت الحركة خموداً تاماً في أثناء تلك الحرب.

ولكنها عادت إلى الانتعاش مرة أخرى بعد الحرب ، وتقلصت صفوفها ، وزادها قوة ظهور هيئة جديدة ، وهى الكومنترن (أو الدولية الثالثة).

وهناك فرق كبير بين الثانية والثالثة في المبادئ والأغراض والأساليب ، فإن الحركة الدولية الثانية تلتمس الوصول إلى أغراضها بالوسائل المشروعة ، وبالتعاون مع الحكومات القائمة ، وتميل إلى النظم البرلمانية الديمقراطية.

أما الحركة الدولية الثالثة ، فإن ظهورها يرجع إلى تدهور الحكم القيصرى في روسيا ، ولأن قادة الحكم في ألمانيا رأوا من المصلحة أن يسمحوا لكل من لينين وتروتسكي أن يذهبا إلى روسيا ، لكي يتوليا تنظيم الثورة الجديدة في روسيا.

وكان لينين قبل ذلك من الأشخاص البارزين في الحركة الدولية الثانية ، وكان يقود جماعة مستقلة ذات نزعة شيوعية ، وكان يرجو أن يوفق إلى تحويل الحركة الدولية الثانية إلى هيئة شيوعية من غير حاجة إلى خلق هيئة جديدة . فلما خانه التوفيق في هذا اضطر إلى تأسيس الدولية الثالثة (الكومنترن) في موسكو في شهر مارس سنة ١٩١٩ . حيث أنشىء لها مكتب خاص لإدارتها والإشراف عليها.

كان الكومنترن إذن عبارة عن نظام دولي مركزه — ولو مؤقتاً — موسكو ، يجمع الأحزاب الشيوعية في جميع الدول ، ويضع لها النظم ويرسم لها الخطط ، ويراقب تنفيذها مراقبة دقيقة.

وبهذا اختلف الكومنترن عن كل هيئة دولية أخرى لأنه هيئة مركزية تلتزم أجزاؤها في كل أمر ذى خطر — بالأوامر التي تتلقاها من المركز الرئيسى في موسكو ، الخاضع من غير شك لتأثير الحكومة الروسية . وهكذا ظهرت في العالم السياسى ظاهرة جديدة ، وهى هيئة خاضعة لإحدى الحكومات ، تصدر تعليماتها إلى رعايا حكومة أخرى . ومن أجل هذا اضطرت بعض الحكومات إلى تحريم الجمعيات الشيوعية بتاتاً.

وقد استغلت الدعاية الألمانية هذه الحالة أشد استغلال وأسرفت في التنديد بالحكومة الروسية ، ومن يصادقها « أو يتحالف معها . ورأت حكومة موسكو أن تسد هذا الباب في وجه الدعاية الألمانية ، فقررت إلغاء الكومنترن وطلبت من الأحزاب المشتركة فيه في جميع الدول أن توافق على هذا الإلغاء ، فقبلت بالإجماع . وزالت الدولية الثالثة من الوجود.

والحقيقة أن الدعاية الألمانية ضد الشيوعية الدولية ،

كانت دائمًا دعاية فارغة لا تقوم على أساس متين ، وذلك لسببين :

أولهما : أن النشاط الدولي الروسي قد هدأ منذ تولى ستالين حكم روسيا .

ثانيهما : أن النظام الشيوعي في روسيا قد أصبح ملطّفًا ، واتخذ صورة أقرب إلى الاشتراكية ، والرأسمالية الحكومية .

فإن ستالين لم يكد يتولى الحكم في روسيا ، حتى نشأ نزاع بينه وبين تروتسكي ، فالأخير كان لا يزال يحلم بنظام عالمي ، ونشاط يتناول جميع طبقات العمال في العالم . أما ستالين ، فكان ينظر إلى الأمور نظرة قومية . ويرى أن أول واجب على حكومة روسيا أن تعنى بروسيا وبالشعب الروسي ، وأن في موارد روسيا الواسعة ما لو أحسن استغلاله لأصبحت به من أكثر البلاد رفاهية ورخاء . لهذا كف قادة روسيا عن الحديث عن نظام شيوعي عالمي ، ووجهوا كل عنايتهم إلى ترقية الصناعة وتحسين وسائل النقل ، وإنشاء المشروعات الضخمة ، التي تدر غلات تزداد عامًا بعد عام .

أما أن المبادئ الشيوعية نفسها قد عدلت تعديلا جوهريا ، فإن هذا ما شهد به كثير ممن درسوا الحياة عن كثب في روسيا ، وحسبنا هنا أن نستشهد بما جاء في كتاب المستر ديفز رئيس الوفد الأمريكي إلى موسكو . حيث يقول : « ليس من شك في أن قادة الحكومة الروسية قد اضطروا لأن يعدلوا عن المبدأ الشيوعي بأن يكون الأجر على قدر الحاجة ، إلى المبدأ القديم القاضي بأن يكون الأجر على قدر العمل والمجهود . وهذه الحالة تسود النظام الحالي كله ... وهكذا نرى أن النظرية التي ترمي إلى خلق شعب يتألف كله من طبقة واحدة ، قد أخلت مكانها للتدرج . فالحكومة نفسها عبارة عن نظام بيروقراطي يشتمل على جميع الرتب ، والميزات الملحقة بكل رتبة ، مثل ارتفاع مستوى المعيشة وما شاكل ذلك . والكتاب ورجال الفن لهم ميزات عديدة ، ويتمتعون بكثير من النعم التي لا يمكن إحرازها إلا بفضل من المال .

وعضوية الحزب تجعل لأصحابها مكانا ممتازا وتلحقه بطبقة ممتازة . وفي الصناعة أخذ نظام الطبقات يظهر بوضوح ، ويزداد ظهورا على مدى الزمن بسبب النظام الذي يقضي بزيادة الأجر لزيادة الإنتاج . فترتب على هذا أن طبقة من العمال أصبحت تعيش عيشة أرغد وتسكن في منازل أرحب من غيرها ، وصارت في الواقع طبقة ممتازة من طبقات العمال .

ومثل هذا يقال عن الجيش ، فقد رجعت إليه رتبه القديمة ، وأصبح عبارة عن طبقات بعضها فوق بعض ، ولكل طبقة ضباطها وشاراتها ورتبها الخاصة بها .

ونرى مما تقدم أن حكومة روسيا الحالية قد عدلت تماما عن فكرة الشيوعية والثورة الدولية ، واتجهت جهودها كلها إلى تنمية الروح القومية ، وأخذت تقوم بدعاية قوية في هذا السبيل » .

هذا قليل من كثير مما ذكره المستر ديفز عن هذا الموضوع في كتابه « بعثة إلى موسكو » وهو رجل دقيق الملاحظة ، شديد العطف على روسيا . ومن كلامه هذا يتضح أن روسيا لم تكن شديدة التمسك بالكومنترن . بل لعلها كانت تنتظر الفرصة المواتية للتخلص من هيئة لم تفدها فائدة كبيرة ، ولعلها جرت عليها كثيراً من المتاعب . وبهذا الإلغاء أثبتت أنها لا تنوي أن يكون لها أدنى صلة بالشئون القومية الداخلية ، أو بأي نظام من النظم السياسية في أي بلد من البلاد .

محمد عوض محمد

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

داء السكر، وقصة دوائه

المعجزة تتحقق

وصل الفائت : طبيب جراح شاب بكندا يدعى «بنتنج» وأستاذه بالجامعة يدعى «مكلود» . [illegible] الأستاذ الطبيب الشاب عشرة كلاب ، وثمانية أسابيع ، ومساعداً أيضاً ، كل هذا ليبحث طريقته . أما طريقته فهي البنكرياس ، وهو غدة في البطن ، به نوعان من الخلايا . خلايا كثيرة تفرز عصارتها بقناة تصب أخيراً في الأمعاء ، فيهضم الطعام بها وهي تسمى العصارة الهضمية . وخلايا أخرى صغيرة ، تسمى بجزر الجزيرة ، أو خلايا الجزر نسبة لمكتشفها . [illegible] وهي ليس لها قناة [illegible] وظن أنه إذا ربط قناة البنكرياس [illegible] فقدت الخلايا الكبيرة التي تفرز هذه العصارة [illegible] تموت . أما الخلايا الصغرى فتظل [illegible] السر الخفي ، [illegible] الإفراز المجهول [illegible] من داء السكر . إذاً فهو سيستخرج هذا السر من هذه الخلايا ليبحث أثره في الكلاب المريضة بالسكر .

والآن اقرأ :

وأراد «بنتنج» أن يغلق عيادته ، وأن يترك التدريس في الجامعة ، وأن يحرق سفنه حتى لا يكون إلا البحر من ورائه فلا يستطيع أن يعود ولو حدثته نفسه إليه العودة . أراد أن يتفرغ لبحثه ، ولبحثه وحده ، فلا يشغله عنه شاغل . هكذا قال للجراح الكبير «استار» Starr . ولكن «استار» ، وصديقيه «جال» Gallie و«روبرتسن» Robertson ، والأستاذ الكريم «هندرسن» ، كل أولئك ظنوا به سفهاً من حيث التضحية بمستقبلا في الجراحة كان قد بدأ يزدهر أو هو كاد .

وتضحية بالعودة إلى عيادته ، إلى مدينة لندن بأنتاريو ، وبأن يقضي بها بقية العام ، فستظل تروح فكرته في داء السكر والبنكرياس ، وستظل تنطفئ جذوته وتهبط حماسته . قال «بنتنج» : «فمن أجل ذلك رجعت إلى لندن» .

ولكن فكرته لم تبرح . ولكن جذوته لم تنطفئ . بل على النقيض من ذلك زادت كلتاهما احتراراً وزادتا احتداماً طول الشتاء الذي أمضاه هناك . وامتلأ بالفكر رأسه ، وضاق بالأمل صدره . ولم يكن لديه في تلك البلدة من وسائل التجربة حيوان واحد . ولم تكن لديه حتى أنبوبة اختبار واحدة . ولم يكن لديه معمل كائناً ما كان . فانصرف إلى القراءة ثم القراءة ، يقرأ عن داء السكر وعن البنكرياس ، وعن خيبة الأكابر من البحاث فيما حاولوه من تغذية مرضاهم عادة هذه الغدة ، أو حقنهم بها ، وقد أشرفوا على الموت إشرافاً . لم يقع أولئك [illegible] البنكرياس ، ولا خلاصة البنكرياس ، فكان [illegible] . وجهود صاحبنا كان لا يزال [illegible] في التفكير في هذا الأمر ، ووقته وحده . أما عيادته فلم يكن به من رغبة في إحيائها . وتعبت عيناه من القراءة فقام يطلب الرسم والتصوير بالزيت ليروّح عن نفسه بين القراءة والقراءة . ولم يكن يعرف عن هذا الرسم شيئاً . ولم يكن إلى جانبه أحد يرشده . فأخذ يصوّر بالزيت ريثة لم تصلح إلا للتصوير بالماء .... أطروه ، فهو لم يكن يعرف فرقاً ما بينهما . ولم يكن من يهديه . ومع هذا ظل يرسم .

وطلع صبح اليوم السادس عشر من مايو عام ١٩٢١ فتجد «بنتنج» قائماً يطلب ما يطلب العلماء من علم . تجده قائماً في حجرة صغيرة حقيرة قذرة مكنونة في المبنى الطبي بطورنطو ، وقد نصّب نفسه للبحث العلمي ، دون لقب ودون أجر . وكان قد باع ما احتوته عيادته من أثاث ، وما احتوته من أجهزة وأدوات ، فضمن من هذا البيع رزقه

إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا .

كان منظراً مثيراً مضحكاً حقاً . هذا « بنتنج » قادم إلى منضدة معمل يحاول إجراء التجارب وهو لم يقض يده قط في تجربة ، ومع هذا كان يؤمن إيمان المجانين أن تحت ذلك السقف ستنحل حتماً عقدة من عقد الطب الكبرى ، عقدة داء السكر . ولم يكن معمله غير ما تشغله تلك المنضدة من كل مكان ، فسائر المعمل — سائر هذه الحجرة الصغيرة الحقيرة — كان يشغله كيميائيون يعملون عمل اليوم الراتب . وكان لديه كل ما وعده « مكلود » : عشرة كلاب وثمانية أسابيع يحل فيها تلك العقدة الطبية الكبرى ، ومساعد واحد يعينه على حلها . ولم يكن هذا المساعد طبيباً ، ولكن طالب طب ، شاباً في الحادية والعشرين من عمره .

وكان اسم هذا المساعد شارلس بست Charles H. Best ، روعي في اختياره أنه يحذق تقدير السكر بالطرق الكيميائية ، في بول ما يفرضه من كلاب [illegible] السكر ، أو في دمها . وكان « بست » يعرف من كيمياء الدم وكيمياء البول أكثر مما عرف « بنتنج » ، ولم يعرف « بنتنج » منها غير النزر القليل . كان « بست » ذا شعر أشقر ، وكانت له عينان واسعتان زرقاوان في وجه متورد اللون بسام ، لا كوجه صاحبنا « بنتنج » مقطب عبوس . ولعل مما أقبل « بست » لما اقترنا من أمر جلل ، أنه كان كبنتنج قليل الإدراك لسخف ما اعترماه ، ولخيبة ما ارتجياه بتلك العشرة الكلاب وتلك الثمانية الأسابيع .

وبدآ سعيهما بأن عاجلا .

نزلا في الميدان . فكان أول ما صنعاه أن ربطا قناة البنكرياس في بضعة كلاب أخذاها من العشرة حيثما اتفق . وكان « بنتنج » قد حذق الجراحة بعد سنوات أربع قضاها في الخدمة كجراح الأكبر ، استار Starr ، فشق الكلب بعد الكلب ، وأجرى أصابعه في بطنه إجراء خبير ، ثم خاط البطون . ونجحت العمليات نجاحاً كان في ظاهره باهراً . وشفيت الكلاب وعادت إلى الحياة . وجاء اليوم السادس من يوليو ، وقد مضى سبعة من الأسابيع الثمانية . فلا بد أن تكون بنكرياسات هذه الكلاب قد انضمرت بربط قنواتها . لا بد أن تكون خلاياها ذات الإفراز الهاضم قد تقلصت ، قد ماتت . ولا بد أن تكون خلاياها الجزائرية ، خلايا لنجرهنس ، تلك الخلايا التي زعم « بنتنج » أنها تفرز في الدم هرموناً يعين الجسم على حرق سكره ، لا بد أن تكون هذه الخلايا ظلت سليمة صحيحة لم تمسسها سوء . وإذن لم يبق إلا أن يستخرج تلك الخلايا الصحيحة السليمة فيحقنها في كلاب مريضة بالسكر ، أمرضها هو وصاحبه بنزع بنكرياسها . وكانت تلك الكلاب الأخرى حاضرة مريضة بالسكر .

[illegible] : شق « بنتنج » بطن كلبين من [illegible] التي ربط قنواتها ، ونظر الضمور بنكرياسيهما ، فوجد البنكرياس في كليهما على حجمه الأول ، لم يصبه أي انتقاص . خيبة مؤلمة ! ولم يبق من الأسابيع الثمانية غير أسبوع !

كان « بنتنج » رجلاً من أولئك الرجال الذين لا تزيدهم الأزمات إلا إقداماً . فما وجد ما وجد حتى أخذ المشرط يلمع بين أصابعه الحاذقة وهو يجول به ذهاباً وجيئة في بطن أحد الكلبين ، ومن فوق مشرطه عينه تشرف قريبة على مواضع القطع ، وهو يقطع ثم يقطع ثم يقطع حول تلك القناة البنكرياسية التي ظن أنه ربطها فأحكم ربطها .

ألا ما أقله وما أجهله ! لقد كشف عن تلك القناة فوجد أنه ربطها فوق ما كان يجب ! وإذن تحررت ، ثم تخلص الفعل منها ، ثم أخذت الطبيعة تصنع قناة جديدة

إلى جانب الأخرى القديمة . . . . . ولم يبق من الوقت غير أسبوع .

وأخذ الرجلان يصعدان ثم يعاودان الصعود من معملهما الصغير في سُلّم طويل القامات إلى غرفة صغيرة أخرى أجريا فيها العمليات للكلاب ، ولم يكن لهذه الغرفة من نافذة ، ولم يكن لها منفذ للضياء غير مَنْوَر في السقف قذرٍ مُهشّم ، زاد ما نفذ من حره إلى الغرفة على ما نفذ من ضيائه . في هذه الغرفة ، وفي أتونها الخانق ، وعلى العرق الجاري فوق وجهيهما ، فتحا بعد هذين الكلبين يعاودان ما بقي من الكلاب . ودق له بارق من أمل . نعم إن أكثر هذه الكلاب لم يضمر بنكرياسه . ولكن بعضها ضمر بنكرياسه حتى عزّ على الجراح إيجاده . إذن فهو الضمر حقاً . ولكن لا بد لي من التأكد هذه المرة . وإذن فقد أعادا ربط القنوات من جديد ، وربطاها في ثلاثة مواضع ، وعلى درجات من الشد مختلفة ، في رقعة أرخى من أختها . ثم خاطا الكلاب ، وعادا ينتظران من جديد . والحر قائم غير راحم .

* * *

وأخيراً جاءت الفرصة الكبرى لاختبار فكرته .

الساعة العاشرة من صبيحة السابع والعشرين من مايو . والطبع كانت الثمانية الأسابيع التي طلبها « بنتنج » قد مضت وفاتت من زمن بعيد . وتوقف بالطبع الأجر الذي كان يؤجره « بست » من أمه ، فلم يكن له طريق للعيش إلا أن يقترض من « بنتنج » ، ودفع بنتنج عن رضا ، فلم يكن في وسع شيء ، أو مقدور ضائقة أن تحول بينه الآن وبين مرماه . وكان الأستاذ « مكلود » قد سافر إلى أوربا منذ أسابيع ، سافر بعد أن بدأ هذه التجارب بقليل . ومما يُذكر لمكلود أنه لم يكتب فيأمر « بنتنج » أن يتوقف وقد فرغت أسابيعه الثمانية ، بل تركه يجاهد وحده . وعلم الله وحده كيف جاهد .

في صبيحة هذا اليوم كان كلب مسكين ، قليل اللحم بيّن العظم ، راقداً على منضدة المعمل ، وقد أشرف على الهلاك . وهو كلب كان « بنتنج » قد نزع بنكرياسه منذ تسعة أيام ، فأخذ السكر يهبط إلى منتهاه سريعاً . وفي تلك الأيام التسعة كان « بنتنج » يقوم باستخراج شيء من دم هذا الكلب ، وإلى جانبه « بست » يقدّر بمحاوره الكيميائي كم من السكر في هذا الدم ، ثم يعاود الاستخراج ويعاود التقدير ، ومقدار السكر في الدم يرتفع يوماً بعد يوم ، حتى صار الكلب غير قادر أن ينتصب قائماً . ولم يعد يقدر على البصبصة بذنبه عندما جاء هذا اليوم . وكان به عطش شديد ، وكان به جوعٌ كافر . كان تماماً كالرجل أصيب بداء السكر إصابة بالغة . إنه لا بنكرياس له ، فلم يكن في جسمه ما يحرق سكر دمه . وأعطياه في اليوم السابق سكراً [illegible] في ماء ، ولكن شيئاً من هذا السكر لم يستقر في [illegible] ما تكون إلى ما ينشيها ، إلى [illegible] يحرق [illegible]

في صبيحة هذا اليوم كان هذا الكلب يوشك أن يموت . وطفت عينه فكانت كالزجاج . وأراد رفع رأسه وهو راقد على المنضدة ، فما كاد أن يرفعها . وكان إلى جانبه كلب آخر فيه الحياة ، وفيه الحركة والنشاط . فهذا الكلب الثاني أحد الكلاب الذي كانت ربط « بنتنج » قناة بنكرياسها ، واشتغلت منذ أسابيع . والآن ..

نعم والآن يقوم « بنتنج » إلى هذا الكلب الصحيح السليم ، فيذبحه . وتعبق رائحة الذبح في المكان فتموج النفس لها . ثم هو يفتح بطن هذا الكلب الصحيح السليم ، ثم يضع يده في بطنه ، يبحث عن بنكرياسه ، فيجده ، فيُظهره ، ثم يدور بالمشرط حضاً لطيفاً حوله ، أو حول ما بقي منه ، فيخلّصه من الجسم تخليصاً .

أي والله ! لقد انضمر هذا البنكرياس حقاً ، وتقلّص ، لقد صغر حتى صار كالإبهام أو أقل حجماً . ومنذئذ لا تسمع

إلا أنفاس الكلب الأول ، الكلب المريض التي أوشك أن يقتله داء السكر ، وإلا صوت « بنتنج » وصوت « بست » ، يتلاقيان الكلم القصير في إبهام واقتضاب ، وإلا مس الفولاذ للفولاذ . وأخيراً تعد تلك القطعة الصغيرة المتقلصة المنضمرة ، تلك القطعة التي كانت تدعى من قبل بنكرياساً ، تجدها في هاون ، قد بُرّدت وأثلجت حتى صارت جليداً .

ويقوم « بست » فيقطعها ويهشمها ، ويصب عليها قليلا من ماء ملح ، ويصبه بارداً ، ثم يدعكها فيه ، ويسحقها حتى تصير حساءً ، ثم هو يرشح هذا الحساء من ورقة للترشيح ، ثم يدفئ السائل الراشح حتى يكون في درجة حرارة الجسم ، ثم يأتي بمحقن فيمتص هذا السائل فيه .

ولمع بريق الأدوات من معدنية وزجاجية في أيدي الرجلين ، ثم ترى « بنتنج » وقد أمسك [illegible] الكلب المريض الذي قتله السكر أو كاد ، وبينما المحقن [illegible] السائل الذي حوى ذلك السر المرجو ، ثم [illegible] السائل في وريد رقبة هذا الكلب ، وهو معلق بين الموت والحياة .

وتمر ساعة وكأنها دقيقة ، و « بست » قائم على جهازه الكيمياوي يمتحن دم هذا الكلب آناً بعد آن ، ثم هو يرفع عينه المتعبة من الجهاز ، ويقوم من ظهره وقد جهده طول الانحناء ، ثم هو ينادي : « بنتنج ! بنتنج ! إن سكر هذا الكلب قد هبط هبوطاً كبيراً . إنه هبط إلى صفر ، شرطة ، واحد ... » ، ومعنى هذا أنه بلغ حد السكر في الكلاب الصحيحة ، أو كاد .

وكان « بنتنج » في الغرفة العليا ، مع الكلب في حجرة التشريح ، وما كان به حاجة إلى نداء « بست » ، وإلى خبر ما جرى للسكر في دم هذا الكلب . فالكلب هذا أمامه يشهد له بالذي وقع . فهذا الكلب الذي عجز من ساعة عن رفع رأسه ليشتم به الماء ليبلّ به حلقه التي جف حتى تخلّل ، هذا الكلب يرفع الآن رأسه ، وينظر إلى « بنتنج » . « وبنتنج » يستقيم في جلسته ليحدق فيه ثم يحدق . ومضت ساعة ، فوقف الكلب على أرجله . ساعةٌ مضت كلمح البصر فلم يحس بمرورها صاحبنا ، فقد كان في ذهول مما يجري . كان في شبه غيبوبة ، كان في شبه النشوة من سعادة غريبة . والكلب ينظر إليه وكان حقُّه أن يكون قد مات . ولكنه ينظر ، ويبصبص بذنبه ، ويمشي . ثم يمشي ولو في غير اتزان كامل .

وعلى السلم الثاني ترى « بست » صاعدا هابطا بين حجرة التشريح والمعمل ، يحلل بول هذا الكلب الذي [illegible] ليقدر السكر فيه ، وقد جرى عرقه صبيباً ، وهو لا يحس بهذا العرق ولا بتعبه . فماذا وجد « بست » ؟ [illegible] هذا الكلب الذي كان يشرب بالأمس [illegible] السكر في الماء ، فيجري في جسمه حيث يجري الغذاء ، ثم يخرج منه إلى البول كما هو سكرا في ماء ، هذا الكلب يشرب الآن السكر فيجتذبه جسمه لينتفع به فلا يعود يجري في بوله . حدثٌ لا يكاد يُصدَّق . وتمضي خمس ساعات على تعاطيه السكر فينعدم السكر في بول الكلب أو يكاد . نقص السكر خمساً وسبعين مرة عن مقداره بالأمس في مثل تلك الساعة من تعاطيه . كل هذا و « بنتنج » قائم في الغرفة العليا إلى جانب الكلب يتأمله والكلب في دوره ينظر إليه بعين منتعشة ، وهو يبصبص له بذنبه يريد أن يقول له : شكرا يا سيدي شكرا .

تحققت المعجزة أخيرا .

ولكن مهلا . فقد انطوى اليوم وهلّ صباح غده ، فإذا بالكلب قد مات ! وكيف مات ؟ [illegible] هذا موضوع المقال الآتي .

(يتبع) أحمد زكي

نظرات في التربية النفسية :

سعادة الكلب وسعادة الأرنب

وقفت في بطن الوادي أتطلع إلى سفح الجبل المعشوشب من قريب . وأمجد الخالق الذي أودع في هذا الصخر الصلد كل ما يترقرق على صفحته من بهاء وجمال .

وإذا شبحان سوداوان ينحدران من قمة الجبل بحرى ، لم أتبينهما أول الأمر ولكنهما كانا يقتربان ...

إنهما أرنب وكلب . . . . الأرنب ينطلق في قفزه الخفيف كأنه السهم الريش . والكلب من خلفه يهوي كأنه جلمود صخر حطه السيل من عل . وليس يرى الناظر إليهما إلا أنهما حيوانان يجريان ، ولكن الفرق بينهما في الواقع هائل عظيم .... فما أبعد ما بين البواعث التي تدفع كلا منهما إلى هذا العدو السريع !

إن أحدهما تغمره السعادة ، والآخر [illegible]

فالكلب يجري وراء الأمل الذي [illegible] والأرنب [illegible] فرارا من الشر الوبيل !

أحدهما طامع طامح فهو لذلك سعيد . والآخر خائف واجف فهو لذلك شقي !

لم تستمر هذه المطاردة إلا لحظات ثم تبدل الموقف ...

الأرنب كان قد لاذ بجحر ، فاستقر فيه وهو يلهث . وجلس الكلب بباب الجحر باسطا ذراعيه وهو كذلك يلهث . ولكن ما أوسع الفرق بين ما تخفق به قلب كل منهما من أحاسيس ؟!

إن الأرنب الآن يخفق قلبه بالطمأنينة والسعادة لأنه معافى سليم قد آمنه الله من خوفه . أما الكلب فينبض دمه بالحسرة والتعاسة لأن أمله ضاع ، ولأن رجاءه خاب !

إني نظرت إلى هذه الحال فوجدت فيها لونين من السعادة . أحدهما سعادة يتذوقها من أحدق به الخطر فنجح في الإفلات منه . والآخر سعادة يعرفها من يضع نصب عينيه أملا منشودا فهو يعمل على تحقيقه .

وهذا اللون الأخير من السعادة هو اللون الجدير بالإنسان الكامل !

ولكن انظر ماذا يفعل رجال الأخلاق والتربية إذا صادفهم مثل هذا المنظر . إنهم يصيحون بملء أصواتهم في الفضاء صارخين : « هذا عدوان أثيم ! » ويحدون بذلك من نشاط « الكلب » ليفسحوا السبيل أمام « الأرنب » .

وهذا هو الخطأ المشترك الذي يقع فيه معظم الآباء ورجال التربية مع أطفالهم الصغار حين يحدون من نشاط « النزعات الكلبية » في نفوسهم ليفسحوا السبيل أمام « النزعات الأرنبية » أو بعبارة أخرى حين يوجهونهم إلى نشدان السعادة في الأماكن الواقية . ويحذرونهم من التماسها في اقتحام المصاعب — حين يلقنونهم « سعادة الأرنب » الخائف [illegible] ينفرونهم من ممارسة « سعادة الكلب » الطموح ؛ إن سر النجاح في تربية النشء هو تقليد « الأرنب » في [illegible] الفنان « الكلب » . وإن نظام التربية الذي [illegible] جزئية من جزئياته على التخويف والإرهاب هو نظام غير جدير بأن يحمل اسمه . لأن السعادة الحقيقية — التي هي غاية الحياة — لا يمكن أن تكون في الدعة . والأمن . والحياة اليسيرة . ولكنها تكون في السعي . والطموح . والتشوف ! إنها لا تكون في « الحصول » على الأشياء . ولكن في « تحصيلها » . وهي ليست في قبض اليد على أغراض الحياة ، ولكن في بسطها لإدراك هذه الأغراض ! والفرق بين خريجي المدرستين ظاهر . فالمدرسة الأرنبية شعارها « الخشية » وأملها « النجاة » . والمدرسة الأخرى شعارها « الإقدام » وأملها « الظفر » .

هذا أحدث ما انتهى إليه أعلام التربية النفسية في تعليم الأطفال السعادة . أفلا تراه مصداقا لهذا البيت السائر القديم :

حب السلامة يثني عزم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل

ع . ج

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

— ٥ —

من يظن أن «حارة شبت» كما يسميها العوام، أو «فندق شبرد» كما يسميه المتعلمون اليوم هو الذي كان مدرسة الألسن، حيث كان الشيخ رفاعة ومساعدوه وتلاميذه يحضّرون الخميرة الأولى للنهضة العلمية والأدبية.

ومن يظن وهو يمر الآن على هذا المنزل أن له تاريخاً طويلاً، وأن قد تقلبت عليه أوضاع شتى فتداول عليه الجد والهزل، واحتلته الأرستقراطية والصعلوكية، وكان أحياناً حرماً آمناً لا يستطيع أن يمر به أحد، ثم كان كمرج بابل يرطن فيه بالفرنسية والإنجليزية والعربية والتركية، ويدوّي في أرجائه الغناء ودق الطبل، ثم أصبح مثابة الشكل الأرستقراطي، ويسكنه الأول أحمد بك الدفتردار زوج الأميرة نازلي هانم كريمة محمد على باشا، ثم مدرسة الألسن، ثم جعل فندقاً للإنجليز، ثم صار منتدى لمن يشاء، وهكذا الأيام كن «تشقى كما تشقى الرجال وتسعد»، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاعة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية، وأحياناً يخطب فيهم فيجلجل صوته، ثم كان يجلجل فيه صوت الجازبند ويرقص على نغماته مهووسو الشبان، مع الغيد الحسان.

***

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش في المكاتب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ لمدرسة الألسن، وكانت قد انتشرت هذه المكاتب في الأرياف وأسست على نظام جديد فيه شيء من الثقافة المدنية كالحساب وما إليه، وسميت «مكاتب الأرياف الأميرية»، وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفاً، اختار «الشيخ» منهم خمسين، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد، فهل كان هذا «عصبية» من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه؟ قد يكون ذلك، والعصبية داء قديم، ولكن يصح أن يفسر هذا التفسير السيء يصح أن يفسر تفسيراً نبيلاً، وهو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهم كان ضعيفاً، وكثير ممن تعلموا في ذلك العصر تعلموا بالإكراه، وكان من يؤخذ للتعلم يودع بالصياح والعويل، كما يودع من يؤخذ في الجندية اليوم، وقد يقبل الناس أن يتعلم أبناؤهم في مكاتب بلادهم، أما أن يسافروا إلى مصر بعيدين عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهم، فهذا ما لا يقبلون، والشيخ رفاعة صعيدي له في قومه جاه، وله في بلده وما حولها حسن سمعة، والناس يطمئنون إلى أن يسلموا أولادهم له، وليس له من هذه الوجاهة في الوجه البحري ما له في الوجه القبلي، فهذه علة كثرة الصعايدة في الدفعة الأولى من تلاميذ مدرسة الألسن، فإذا انتقلنا إلى هذه المدرسة رأينا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديهم وبحريهم.

يعيشون عيشاً داخلية في مدرسة الألسن، يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاعة.

ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه، فهي تسبب مشاكل لا تحصى: طلبة يأتون من الأرياف «بجلابيبهم»، لم يروا إلا زرعهم وضرعهم وبيئتهم المتواضعة التي تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم، وفيهم المتزوج وله أولاد، وفيهم من لم يبلغ الحلم، يدخلون بهذا القصر المنيف، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية لطيفة ويجلسون أمام مسيو «بتير» يتعلمون منه الفرنسية! يا لها من معجزة! والشيخ على الفرش الأسماري يخلع حذاءه ويتربع، ويخلع جبته ويفرشها على الأرض ويصلي

الظهر في حجرة واحدة مع مسيو « دزون » .

وأحمد عبيد الطهطاوي الطالب في المدرسة يعلق على أرض الحجرة المنقولة من « البارك » — عقليات مختلفة في الطلبة ، وعقلية متباينة في الأساتذة ، ويطلب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكون وحدة .

لا بأس ، فالشيخ رفاعة قادر على كل ذلك ، وقد مر بهذه الأدوار كلها وعرف عقلياتها ، فهو مستطيع مواجهتها ومعالجتها ، هو ملتقى العقليات المختلفة والتقاليد الاجتماعية المتباينة .

عرف أمر الشيخ في المدرسة — رزقه الله صحة جيدة لا تكل ، ورزقه قلة النوم ، ورزقه الطبع المرح المرح الذي يستطيب النكتة ويضحك لها من أعماق قلبه ويشارك في صنعها ، ويكل ذلك علا من المدرسة ، هو أب رحيم لكل الطلبة ، وأخ كريم لكل الأساتذة — هو رجل كله رحمة لا يعيد عيباً ولا حرص ، يحلو له أحيانا أن يبقى ... بعد العشاء ، أو في ثلث الليل الأخير ... [illegible] الطلبة في إقبال على التحصيل ، والأساتذة في إقبال على الدروس .

فإذا نال الطلبة قسطاً لا بأس به من الفرنسية والعربية مرنهم على الترجمة ، ولكن لا بمرنهم بموضوعات تكتب في كراساتهم ثم تطرح ، بل في كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا ، فإذا وقفوا في فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا إلى الشيخ فساعدهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية بتصحيح لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي ، فقد كان مساعده الأيمن في هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون . فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً .

فأنت يا أبا السعود أفندي ترجم لنا هذا الكتاب واسمه « نظم اللآلي في السلوك ، فيمن حكم فرنسا من الملوك » . وأنت يا خليفة أفندي محمود ترجم لنا « إتحاف ملوك الزمان في تاريخ شارلكان » ؛ فإذا فرغت منه فترجم « المُشرق في المنطق » ، وأنت يا محمد أفندي مصطفى البياع ترجم لنا « مطالع الشموس في وقائع كرلوس » ملك السويد ، وأنت يا أحمد أفندي عبيد ترجم لنا « الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر » وهكذا .

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير في كتابه ، لأنه يدل على منهج العمل : « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن ، المؤيد بعناية الملك المعين ، السيد رفاعة أفندي ، فأطلع توفيقي كشيري ، حتى حسن حظي وصبري ، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنساوية والعربية ... فبعد أن رأى في التعلم حسن حظي ، واجتهادي في نيل المأمول بين أمثالي ، اقتضى رأيه السديد ، وحزمه المفيد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، المتضمنة لسيرة ملك من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، الذي فضله أشهر من أن يذكر ، تأليف الشهير المسمى فولتير ، الذي يعد بين أكابرهم أعظم [illegible] الأديان بعيد الحجة ، جاء الغريب [illegible] وأتم منوال ، وقد شرعت في نقله من الفرنساوية إلى العربية ، مع إعانته لي في حل مشكلاته ، وما عسر عليّ من غوامضه ومعضلاته ... وقد تشرفت في ترجمته على مضمون الجملة ، وتبهرت بتنسيق مطالعته وفهمه اللآلئ النظمية ... مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدوداً من التواريخ السياسية الشهيرة والوقائع والحوادث البوليتيقية ، ومؤلفه من كبار الفلاسفة من الفيلسوفية ، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنساوية ، ولا أقول مع ذلك إنه خال من الخلل ، أو مبرأ من الخطأ والزلل ، فإن ذلك ليس في طاقة الإنسان ، الخائض في استقالة عثرات اللسان » .

وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى ، فشهدت مصر منها نموذجاً لم تشهده من قبل ، شباب متمكن لغة عربية ولغة أجنبية ، ومثقف ثقافة أدبية — جغرافية وتاريخية . وكل ذلك تعلمه في مصر لا في أوربا ، وكذلك تتفتح المصالح المختلفة التي تحتاج إلى هذا النمط من الموظفين ،

فكنت ترى — فيما بعد — هؤلاء المتخرجين في الدفعة الأولى ، يشغلون مناصب هامة مختلفة ، فهذا عبد الله أفندي أبو السعود أكبر رجال الترجمة في مصر ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم ، وهذا محمد أفندي عبد الرازق كاتب سر الحضرة الخديوية ، وهذا شحاتة عيسى أفندي وقد تخصص بحذق العلوم الرياضية والحربية ، وكان ناظر مدرسة أركان حرب ، وهذا أحمد عبيد أفندي وكيل مجلس التجار بالمحروسة ، وهذا حسن فهمي أفندي وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية ، وهذا السيد عثمان [illegible] القاضي ، وهذا مصطفى رضوان مترجم اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ، الخ الخ ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلاليبهم وسذاجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل ، لأخذ منك العجب كل مأخذ ، وعرفت مجهود الشيخ رفاعة .

وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى ، فأخذ يصلح الأخطاء ويوسع الاختصاص وينوع العلم .

فألحقت بمدرسة الألسن [illegible] للدخول بها على أبناء الكتاب ، [illegible] في اللغات التي يدرس فيها ، ووسع في [illegible] بلغ من فيها مائة وخمسين طالباً ، وألحقت بالمدرسة فروع مختلفة ، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بها القانون الفرنساوي والفقه الإسلامي ، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أفرنجية ، وكل هذه المدارس يسوسها ويديرها الشيخ رفاعة ، وحل المصريون أساتذة محل الأوربيين .

سبع عشرة سنة يعمل في هذه المدارس كالنحلة لا يكل ، فأمور إدارية ، وقيام بترجمة كتب ، وإشراف على ما يترجمه غيره ، وفي كل حين يضم إليه عمل آخر جديد ، فيعهد إليه نظارة الوقائع المصرية ، والكتبخانة الأفرنجية ، ويعين عموم المدارس ، ويفتش على المدارس ، ويشرف على الامتحانات العامة في آخر السنة ، ويحبر الخطب تخطب فيها — حتى كوّن جيلاً جديداً هو — من غير شك — أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه ، وتغير وجه مصر من الناحية العقلية والأدبية ، فجملة ما ألفه وترجمه هو وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع — نحو ألفي كتاب في فترة نهضتنا ، وعماد ثقافتنا ، يدين له رجال الأدب بما كوّن لهم من أمثال إبراهيم بك مرزوق الناظم الناثر المشهور ، ومحمد عثمان جلال صاحب العيون اليواقظ ومترجم قصص لافونتين ، وبول وورجيني الخ ، وصالح مجدي ، ويدين له رجال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدري باشا مقنن الشريعة الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف ، ومرشد الحيران ، ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك البيومي وتآليفه في الحساب والهندسة ، إلى ما لا يحصى من رجال الفكر في كل فرع من فروع العلم .

* * *

رضيت له الدنيا ، فهو ناجح في عمله ، والولاة مقبلون عليه يقدرون جهده ، والنعم تتوالى عليه ، فكلما قدم تلاميذه [illegible] الأمر إلا أن تنجحوا ألقاباً أعلى [illegible] آخر من ترجمة كتب مطبوعين [illegible] رتبة ميرالاي ورفع مرتبه إلى [illegible] في الشهر ، ومنحه ٢٥٠ فداناً في [illegible] لما أحسن .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، والعيش — أبداً — حلو ومر ، « والدهر ذو غلظة حيناً وذو لين » ، فهذا عباس باشا الأول يأتي فيقف حركة التعليم ويعطل المصانع والمعامل ، رغبة — فيما زعم — في الاقتصاد ، ولم يبق للتعليم إلا مدارس قليلة جداً ، وكان فيما ألغي مدرسة الألسن والشيخ رفاعة ، وإذا كان الشيخ أكبر مشجع التعليم ، كان أحق الناس بالمقت ، وإذا كان أحب شيء إلى الشيخ العلم والتعليم ، فأبغض الناس إليه من يلقى العلم والتعليم ، ووجد رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهوون ، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون ، فإذا قالوا أسود ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود ، وإذا قالوا أبيض ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض ، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدموا ألف دليل آخر على أن الأسود أبيض ، كالذي يروى أن طاغياً سأل سيده يوماً :

ماذا نطبخ اليوم ؟

السيد — والله لا أدري ، أنطبخ باذنجانا ؟

الطاهي — الله — نعم ما ذكرت ، إنه لذيذ الطعم ، مفيد للجسم .

السيد — ولكنه يتعب معدتي .

الطاهي — صدقت ، ما أثقله ، وما أعسر هضمه ، وما أقل فائدته .

السيد — يا رجل ! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته ؟

الطاهي — اسمع يا سيدي — أنا خادمك أو خادم الباذنجان ؟

كذلك تم هؤلاء رغبة الوالي في إقفال المدارس ، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم وطعنوا في الشيخ رفاعة بأنه قليل الفائدة، [illegible] الطريقة .

وإذا الأمر يصدر بنفيه إلى الخرطوم تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرا ومعه طائفة من المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولم [illegible] هو شأننا اليوم ، تقبل الوظيفة أو [illegible] قبل الوظيفة أو نفي إلى أسوان من [illegible]

[illegible] الشيخ في الخرطوم بعد [illegible] ، ولم تكن الخرطوم كما نعهدها اليوم ، ذات شوارع ، وجمال مبان ، ومدنية راقية ، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة ، ولا وسائل متوفرة للعيش ، وهو ناظر مدرسة ابتدائية في السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله في مصر ، وكل يوم يتخطف الموت أحد معاونيه ، حتى لم يبق إلا نصفهم أو أقل ، والشيخ يستغيث ولا مغيث ، فينفس عليه في قصائد الاستغاثة ، يستغيث أولا بالأمراء ، فإذا فشل استغاث بالأولياء والأنبياء ، فهو يستغيث — أولا — بحسن باشا كتخدا مصر بقصيدة من ستة وثلاثين بيتا ، يبدأ فيها الوشاة فيقول :

مواطن الفضائل غادرتني ... وهل في حربهم تكبو جوادي
وزخرف قولهم إذ موهوه ... على تزييفه أذن السبادي
قياس مدارس — قالوا — عقيم ... بمصر فما النتيجة من بلادي

ويعجب كيف يقوم أمر بمثل هذه الأعمال ، ثم يجازى مثل هذا الجزاء .

على عدد التواتر معربات ... تفي بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل ... ومنتسكيو يقر بلا تمادي
ومفتاح فراغ فرات درسي ... فقد فتحوا سقاية كل صادي
ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عمادي

* * *

رحلت بصفقة المغبون عنها ... وحظي في سواها في الكساد
وما السودان قط مقام مثلي ... ولا سلماي فيه ولا سعادي

ويحز في نفسه فرقة أولاده :

وقد فارقت أطفالا صغارا ... بطنطا دون عهدهمو اعتيادي
أفكر فيهمو سرا وجهرا ... ولا أحظى بطيب ولا رقادي
أريد وصالهم والدهر يأبى ... مواصلتي ويطمع في عنادي

وكان الشيخ [illegible] ، فقد وضع القصيدة على [illegible]

[illegible] ... ولكن لا حياة لمن تنادي

[illegible] أحد يخمس قصيدة لسيدي عبد الرحيم البرعي في مدح النبي مطلعها :

حي الغرام لصب دمعه دمه
حيران توجده الذكرى وتضرمه

يقول فيها :

« رفاعة » يشتكي من غصة حضرت
لما رأى أبحر الرهبان قد زخرت
فارفع ظلامته فهي لك ادخرت
وهاك جوهر أبيات بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

أربع سنوات في السودان كانت عليه كسني يوسف ، ومع هذا ترجم فيها قصة تليماك ، وعلم في مدرسته بعض أبناء السودان ، وأبناء الموظفين من المصريين ، وكانت مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس ، ولم ينقذه من نكبته إلا موت عباس وتولي سعيد .

(يتبع) **أحمد أمين**

صــــورتان

خلوت من أيام إلى طائفة من الشعراء ، فسمعت جملة من هواجس صدورهم ، وفي هذه السورة استطعت أن أخلص بعض الشيء من عالم المادة الذي نقاسي همومه ، إلى عالم الفن الذي يخفف علينا من شدة هذه الهموم ، ولست أشك في أن هذا العالم ، العالم المعنوي إنما هو بمنزلة مغطس تغطس فيه نفس الإنسان فتطرح عنها ما تألب عليها من الشجون ، وما لصق بها من الهموم ، ثم تخرج من مغطسها صافية ، نقية ، مستعدة لتذليل مصاعب الحياة ، قادرة على احتمال متاعبها .

والشعراء الذين أخلو إليهم في أثناء الخلوات من حين إلى حين لا يكثر عددهم ، وهم ليسوا من عصر واحد ولا من أمة واحدة ، فلكل عصر [illegible] أمة مزاياها ، وتمثل النفس من [illegible] ، ويمثل [illegible] من هذه المزايا ، مستقلة هذا النفس .

* * *

هبط شوقي دمشق الشام سنة ١٩٢٥ ، فأعجب النظر في قصيدته الدمشقية ، وفي جملتها هذه الأبيات :

والحور في دُمّر أو حول هامتها
حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلباب راقصة
الساق كاسية والنحر عريان

إني لم أنشأ عند قراءة هذين البيتين أن أنظر في فن شوقي أو في لغته ، ولا أن أبحث عن محاسن هذا الفن أو عن مساوئه ، وإنما أردت أن أرى من وراء هذا الشعر روح صاحبه ، أردت أن أخلص إلى شوقي نفسه ، هل يعلم القارئ الكريم أن دمّر والهامة والربوة التي ورد ذكرها في البيتين إنما هي من جملة متنزهات دمشق ، لقد وقعت عين شوقي على شجر الحور في هذه المتنزهات ، وشاءت هذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به هذا الحور ، ووقعت عينه على وادي الربوة ، وشاءت هذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به منعطف هذا الوادي ، فلم يجد شوقي شبيهاً لشجر الحور إلا الحور الكواشف عن سيقانهن ، ولم يجد شبيهاً لمنعطف وادي الربوة إلا جلباب راقصة من الراقصات ، ساقها كاسية ، ونحرها عريان !

هذا هو العالم الذي يتبرم به خيال شوقي ، ولكل واحد منا يرى الصور الظاهرة ، فترتسم هذه الصور في أعماق نفسه ، وهي واحدة في لونها وهيآتها ، ولكننا إذا أردنا أن نخرجها من نفوسنا ، ونعرضها على غيرنا ، فلكل واحد منا مذهب في تصويرها وعرضها ، وفي هذا المقام يختلف الناس ، بعضهم عن بعض ، لقد رأى كثير منا الحور الذي رآه شوقي ، ورأى كثير منا في الربوة التي رآها فيها شوقي ، وما أظن أن خطر ببال واحد منا أن هذا الحور [illegible] من سيقانهن ، أو أن هذه الربوة تشبه الراقصة ساقها كاسية ونحرها عريان ، فلكل واحد منا يعرض لغيره الصور التي ترتسم في صدره على شكل خاص به ، بحسب مزاجه أو ذوقه أو ثقافته أو غير ذلك من العوامل ، فماذا جعل شوقي الحور والراقصات مادة لفنه !

لقد ذاق شوقي لذة الدنيا ، وتقلب في أعطاف نعيمها ، وضرب في مجالس لذاتها ، وزار مروجها التي أفرغت الطبيعة فيها سحرها ، وألقت عليها حسنها ، فشم من هوائها ، وشرب من عيون مائها ، واستدفأ بشمسها ، وجلس إلى نحورها وملأ نظره من صدورها ، وهذه الحور على نحو ما وصفهن لنا مترعات من النعيم ، راويات من السرور ، عاريات من الملال ، ناهضات من الغرور ، لاعبات في طيبات الترف ، ناهلات من الرمان ، مشرفات على البحور والآلات ، ويقضي شوقي لياليه في مروج ما ندري هشاشها من نحورها لولا صياح الديكة !

هذا هو العالم الذي عاش فيه شوقي ، فلا نعرف السر في التشبيه صور دم بالخمور ، وصفق الزوبة بالراقصات إلا إذا عرفنا هذا العالم الذي تقلب فيه وملأ نفسه من سحره ومن فتنته ، فصور هذا العالم ماثلة في ذهنه ، واقعة في صدره ، شاغلة لقلبه ، فهي مادة لفنه ، مادة لاستعاراته وتشبيهاته ومجازاته وكناياته ، فإذا عرض علينا صورة من الصور الراسخة في أعماق نفسه فرعان ما تلحق بهذه الصور المعروفة آثار العالم الذي عاش فيه وتمرس !

وبعد أن خلوت إلى شوقي ساعة من الزمن ، خلوت إلى شاعر آخر ، من طراز آخر ، لقد وصل شوقي بين الطبيعة وبين الخمور والراقصات صلة مستحكمة ، فما هي الصلة التي خلقها المتنبي في مثل هذه المشاهد .

قدم المتنبي طيرة وبنوه على شواطئ بحيرة ، ولكن ما أبعد الفرق بين الصور التي تختلج في قلبه وبين الصور التي تختلج في قلب شوقي ، [illegible] طبرية مشهورة ، لا حاجة بي إلى [illegible] ولكني أذكر منها ثلاثة أبيات :

والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغى هازم ومنهزم

ما أبعد هذه الدنيا التي عاش فيها المتنبي ، من الدنيا التي عاش فيها شوقي ، عاش المتنبي في عالم الخيل والسلاح والفرسان والجيوش ، عاش في ميادين الحروب ، فقد يستطيع أن يجد شبهاً للطير والموج في عالم الرقص ، فحركات الموج وحركات الطير فوق الماء ليست ببعيدة عن بعض حركات الرقص ، ولكن ما المتنبي وما للرقص ، عاش المتنبي في عالم تجري فيه جداول الحرب ، وعاش على هذه الحياة مملكة غالبة وهي مملكة بني حمدان ، فلا تكاد صور الجيوش تفارق ذهنه ، لقد نشأ في البادية على رؤية هذه الصور ، وخالطته في شبابه ، فإذا رأى الطير فوق الحباب حسبها فرسان خيل بلق ، وإذا رأى الرياح تضرب الطير ، ظن أن في الجو حرباً بينهما : جيش هازم وجيش منهزم ، لم تكن الطبيعة في نظره عالماً يأنس فيه بالنساء ، وإنما كانت عالماً يأنس فيه بالفضاء !

خلق المتنبي لدنيا المعارك والمغازي ولم يخلق لدنيا المسارح والرقص ، فأول ما فتح عينيه فتحهما على البادية وعلى ميادين القتال الأعراب ، ثم فتحهما على حروب سيف الدولة وشهد بعض هذه الحروب بنفسه ، فبقيت صور الحروب مختلجة في صدره في كل حياته ، فهي مادة فنه ، وهذا السر في أنه إذا رأى الموج رأى من وراء هذا الموج فحولاً مزبدة ، وإذا رأى الطير والرياح ، رأى من وراء هذا الطير وهذه الرياح جيشين في وغى !

[illegible] من شعر المتنبي هذا القدر اليسير ، فلسنا في شوق إلى الحروب وأهوالها ، وحسبنا هذه الحروب التي [illegible] ، ولكني لما طرحت الديوانين من [illegible] شوقي وديوان المتنبي ، خطرت ببالي [illegible] مثلها ببال أساتذة الأدب ، وأرجو أن نرى في شعر شعرائنا وفي كتابة كتابنا شيئاً غير الفن وغير اللغة ، إن مصادر هذا الشعر وهذه الكتابة إنما هي آثار الطاقة تظهر في كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته ، فإن وراء هذه المصادر أشخاصاً ينطقون ويشعرون ، فإذا خالطنا مصادرهم الأدبية وما رحنا أحطنا بظواهرهم وبواطنهم واتصلنا بأسرارهم وألغازهم ، عرفنا أذواقهم واهتدينا إلى أمزجتهم ، وعلمنا لماذا يسرح خيال في دنيا النساء ، ويسرح خيال في دنيا الفضاء ؟

شوقي ضيف

حكم في الجناية العسكرية ١٦٨ ببندر [illegible] سنة ١٩٤٣ بجلسة ١٩/٥/٩٤٣ حبس على عبد الحكيم عبد الصمد بضبط الحاج ثلاثة شهور شغل وغرامة ١٠٠ جنيه والمصادرة وذلك لبيعه قمحا بسعر أزيد من التسعيرة .

حول الأدب المهموس :

ترنيمة السرير

أرسل الأستاذ عزمي يوسف كلمة إلى «الثقافة» عن نسبة «ترنيمة السرير» إلى «ندى عريضة» ، وهو يذكر أنها لإلياس فرحات ، ولكني رجعت كتابي القديم (ص ٣١٤) فوجدتها لنسيب عريضة كما ذكرت في مقالي ، ولقد ظهر لي أن كتابي هو أيضاً «بلاغة العرب في القرن العشرين» ، وهو نفس المرجع الذي يرجع إليه الأستاذ عزمي يوسف ، وفي هذا ما يدهش ، ولعل منشأ ذلك التناقض في اختلاف الطبعات ، فالنسخة التي بين يدي قديمة ولعلها من أول طبعة ، وهي على الأرجح أصح ؛ وقد اتفق أن لاقيت الأستاذ محيي الدين رضا [illegible] وناشر «بلاغة العرب في القرن العشرين» [illegible] في نسبة «الترنيمة» فأخبرني [illegible] وصدق بأنه تخيرها من المجلة التي أخذ منها «الترنيمة» وهي إحدى المجلات التي تصدرها الجالية العربية بأمريكا .

وأنا شاكر للأستاذ عزمي يوسف إحساسه الرقيق .

والترنيمة طويلة لم أذكر منها إلا الأبيات الستة الأولى ، وقد راعني ما أثاره مقالي عن الهمس في الأدب من جدل ، ولكنني لا أزال عندما أومن به ، وأنا بعد لا أدعي أني قلب مثله لا يستثير الجدال ، وأنا أقدر كثيراً إلى الكثير من الراحة . في الأمر رحمة الله .

ومع ذلك أرفض القول بأن أدب المهجر ضعيف منهوك . أين إذن تجد قوة النفس ؟ أين تجد القدرة على الانفعال ؟ أين تجد توثب القلب ووميض العقول ؟ أين تجد نبض الحياة ؟ ليست القوة مكابرة باطلة . ليست القوة حياء كاذباً . القوة ليست نفاقاً اجتماعياً .

قالوا إن الصدق في الأدب هو مقياسه الوحيد ، وهذا قول ينافي . الأدب أعمق من الصدق . الأدب ليس تصويراً للواقع ولا تسقطاً لأسقاط الحياة . الأدب خلق الصدق .

وهنا نستمر في تحليل «الترنيمة» ، يقول الشاعر :

ظـــلام الليل قد أطفا ... نجوماً تحجب الطرفا
فما للطـــفل لا يغفو ... أيبقى اليـــوم ألحاظا

والناظر في تحليل البيت الأول من صدق يراه عارياً عنه ، وذلك لما هو واضح من أن ظلام الليل لا يطفئ النجوم بل يزيدها تلألؤاً ، ومع ذلك أي صدق نفسي في ذلك البيت الرائع . وهذا رجل نشر الحزن نفسه ظلاماً لم يلبث أن غشي بصره ، فالنجوم أن تتلألأ دون أن يرى تلألؤها :

[illegible] الأخـــلان لا أدري ... ســوى أنشودة الصبر
أذيب [illegible] القهر ... لطفـــل بات جوعانا

[illegible] سماعاً ، إنهم يسمون الأشياء [illegible] الألفاظ . يعنى «الشاعر» من القهر [illegible] ولكن من منا لا يحس بأن هذا القهر ليس يأساً وإنما هو استجمام للتوثب . من منا لا يحس بنفس الشاعر العاتية متحفزة خلف هذا القهر الإنساني . من منا لا يحس بنار تتقد . نار لا بد آتية على ما ألقي من مثقلات . ليس الأدب ألفاظاً . الأدب روح لا تدري من أين تطالعك . روح لا تدركها إلا الأرواح .

ملاك الرب في الحلم ... يناجي الطفل كالأم
يناديه من النجم ... ألا نم ، وقتها حانا

قلت فيما سبق إن شعراء المهجر يصدرون عن قلب فيه لهفة إلى الله ، ولو أنني قلت إنهم متصوفون لما عدوت الحق ، فالتصوف ليس إلا رقة في الإحساس . كل شعور قوي تصوف مهما كان موضوع ذلك الشعور ، ولهذا ترى الناس يتقاتلون في غير طائل حول تصوف شاعر كالخيام ، أمادي هو أم روحي ، وهل خمره خمر الشراب أم خمر

الروح ؟ والأمر بعد سواء . الخيام روح عارية . وكذلك الأمر عند شعراء المهجر . أين منهم فتور أغلب شعرائنا ؟ أين منهم فترة الروحي ؟ أين منهم ضعف نفوسنا ؟ أين منهم نفاقنا الخلقي ؟ أنظر إلى شاعرنا كيف يجمع بين القيم الإنسانية في ملاك الرب الذي يناجي الطفل كالأم . أليس حنان الأم قبساً من روح الله ؟ وهذا النداء « ألا نم ! وكفى حالما » أليس التعبير مباشراً قريباً قوياً . أو ما تراه يشبه الهمس . الفن الجبار وهؤلاء الشعراء يعرفون كيف يختارون التفاصيل الدالة الفنية فيبقيها الإنسان .

يناجيــــه بأيام سيأتي فجرها ظلام
سيروى ماؤها الظامي ويشفى النور عمياناً

وفي شفاء النور للعميان ما يبرز فيهما الأحلام . ظلمة الليل لنجوم السماء ، ثم ما القول في هذا الأمل الباسم ؟ عجيب أمر هؤلاء الشعراء . يتنسمون الأمل ، ومع ذلك تهزأ ابتسامتهم . وكأني بها تبعث [illegible] بعد المسافة تشرق وسط الظلام . [illegible] أولا ترى معي شاعراً وهو يشد [illegible] سعيدة ، وإني أحس بالجهد في تلك الابتسامة الرائعة ، وبعد ذلك يقول قائل : إن أدبهم ضعيف ، وإننا في حاجة إلى أدب الحروب قوي ، ومَنْ يستطيع أن يدلني على قوة تصدر من الحروب ، الحرب شيء مبتذل لم تر قط حاجة لأدب قوي ، وهو بعد لا يحرك النفوس ، الأدب عزاء عن الحياة ، والعزاء قوة . الشعر في العالم كله ضيق بالحياة وعلاج لها ، ولكنه ليس يأساً ، واليأس محض ، وموضع الإعجاز هو أن يدفعك ذلك الضيق إلى تشبع الوجود ، هو أن تشقى الشكوى من الألم .

ثم يقول بعد ذلك بأبيات :

أصوتي ذاك قد غنى أطلي ذاك قد أنّا ؟
كفى نداً(١) كفى حزناً فقلب الطفل ما لانا

هززت الريح ما يسمع وتعب الروح ما أسمع
ألا ما سمعت تخشع إلى الأصوات حيرانا
ظلام الليل قد أطبق نم يا طفل لا تقلق
يعود النور والرونق إذا ما الله أحيانا

هذا هو الهمس الذي لا أدري كيف يتهم بالضعف ، وأنا بعد أحس فيه قوة لا أجدها في غموض معظم شعر الثناء ، والأمر ليس من الشاق تفسيره ، فنحن قوم ضيقو العقول بالأرض ، قوم يؤثرون الاستكانة على المغامرة . لقد طوفت في الكثير من بقاع الأرض ، فلم أر مصرياً يجالد غريباً على الحياة ، وعدت إلى مصر ودرت بمصري فلم أر إلا مطلوباً خاضعاً لطالبه ، أو مطالباً يخشى أن يشكو ألمه . رأيت شيوع النفاق في كل مكان . أرى رجالاً قليلي الشبه بالرجال . [illegible] القوة ؟ نحن قوم لا يجسر أحدنا أن يرفع نظره إلى من يعتبره أقوى منه ، فكيف بنا نحدق في الحياة [illegible]

[illegible] يتلون النفاق الاجتماعي فضيلة . قوم يخشون [illegible] التنفس بالفساد ، وقد فسدت حياتنا الاجتماعية بإزالة [illegible] نفوسنا ، ولهذا ترى غرائزنا فاسدة . إذا تغزلنا جاء غزلنا إما إسفافاً في الخضوع وإما «طرطشة» في العاطفة . قوم تعوزهم القوة المتماسكة .

نحن قوم كثيرو الادعاء عن جهل . نكابر الغربيين وندعي الشذوذ المريضة الباطلة ، ونروج بالقومية وما إليها لنغطي جهلنا الريع . مَنْ من أدبائنا أو شعرائنا يعرف أن من واجب الأديب أن يكون مثقفاً ثقافة منظمة عميقة موضوعة ؟ مَنْ منهم يدرك أن الأدب ليس خلقاً من العدم ؟

هذه بعض الأمراض النفسية التي تفسد أدبنا ، ولهذا أوثر شعر المهجر ، ولقد علمت إيثاري هذا في ذلك الشعر من همس ، وحاولت ما استطعت أن أوضح معنى ذلك الهمس ، فقال البعض إني أتعصب لنوع من الأدب

(١) كنت أؤثر ألا يستخدم الشاعر هذا اللفظ لما يثيره من نزاع في الخواطر ، و «تسكن» لفظة لا تخلو من روح القصيدة العامة .

سيرة صلاح الدين :

-٧-

جفاء

« فرغ صلاح الدين من إسقاط الدولة الفاطمية وجعل مصر إمارة عباسية . ثم أصبح وجهاً لوجه أمام صعوبات كثيرة كان من أولاها هذا النفور الذي ظهرت آثاره قوية بينه وبين نور الدين » .

قال الأمير الشيخ لابنه السلطان : « أتدري يا ولدي منذ كم تغير عليك قلب نور الدين ؟ » .

قال السلطان : « أحسب أن ذلك يا أبي منذ أقدمت على أن أكون وزيراً للعاضد الفاطمي ، وأخذت خلعة الوزارة قبل أن يأتيني من نور الدين إذن بقبولها » .

قال الشيخ : « هو ذلك يا ولدي — فقد وقعت الغيرة منك في قلبه ، والحذر من أن [illegible] إرضاء للخليفة المصري يشغل المنصب حول [illegible]

قال السلطان : « والله يا أبي — لقد ضيقت منه على حرّ الصدر ووخز الإبر ؛ وما قدر أحد من أصحابه حتى الساعة أن يجد عليّ ما يعتبره ذنباً ؛ وقد اجتهد هو نفسه أن يجد لي هفوة يتخذها عليّ فلم يقدر ، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يصبر أحد على مثلها لعلني أتضجر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي فما أبلغه مأربه » .

— « نعم ما فعلت يا ولدي ، وهذا ما نصحتك به دائماً فتلك رعي هذه التي تسلكها وتصر على اتباعها » .

— « ذلك ما فكرت فيه من جهة نور الدين ، وإني لأفكر أيضاً في غير نور الدين ممن أخافهم على نفسي ... »

— « ومن هم أولاء يا ولدي حتى أعينك عليهم » .

— « هم إخوتي يا أبي ، إذ ينظرون إليّ بالعين التي نظر بها يوسف من إخوته ، وقد بت أخشى غيرتهم ، وأما الأمراء [illegible] أخافهم حتى لا يقوم غرورهم [illegible] على فتوح يعود خيرها عليهم ،

يستجيب له مزاجي الخاص ، ولكن الأمر ليس أمر تعصب ، كما أنه ليس ضيقاً في النفس يمنعها من الإصغاء لغيره من أنواع الأدب ، وإنما هو إيمان بروح إنسانية قوية أحسها في ثنايا ذلك الأدب ، روح فاقدة موحية ، ومن عجب أن نقول إن الشعر الخطابي إذا خلا من موسيقى اللفظ وقوة النفس اللذين تجدهما عند المتنبي في الشرق ، وهيجو في الغرب مثلاً أفسدت الخطابة الشعر ، ثم يأتي من يقول إننا لا نطرب لشعر المتنبي ، يخيل إلى أنه من الخير أن نفسر الهمس بأنه « القدرة على الإيحاء » ؛ فالشاعر الذي ينجح في أن يهزك هو الشاعر العظيم ، وهو قد يستطيع ذلك بضخامة موسيقاه كما قد يستطيعه برقتها ، وأما أولئك الذين اقرأ لهم فلا يبقى منك حس ، ولا يهتز قلب ، فلست أدري من أين يأتيهم الشعر ؛ لقد تصفحت مثلاً « أعاصير مغرب » فعجبت أن يجرؤون على تسميتها شعراً ،

وهي نثرية في مادتها ، نثرية في أسلوبها نثرية في روحها ، والقريبة بعد متبدلة متكلفة ، حتى الإحساس فيها شيء لا تطمئن إليه النفس ، شيء بارد .

الأدب الجيد لا بد أن يكون الإحساس ؛ وصاحب « أعاصير مغرب » من الكتاب الذين قد تبهرك مهارتهم العقلية في التخريج ، ولكنني لا أذكر إلا في النادر التي لا يذكر أنه قد استطاع يوماً أن يحرك في نفسي إحساساً فكيف له بقول الشعر ؛ وكيف يجوز لنا أن نقارن شعراً « كالأعاصير » ونحوها بشعر الهمس الحي ؟

أنا لا أريد أن أملي ذوقي على أحد ، ولكنني أحاول أن أبصّر بالقيم الإنسانية ، التي يجب أن يتجه إليها أدبنا إذا أردنا أن نلحق بغيرنا بدلاً من الجمود على الباطل الذي نحن فيه ؟

محمد مندور

ونكون مع ذلك ردءاً لنا إذا فكر نور الدين في مهاجمتنا في الديار المصرية ليخرجنا منها أذلة » .

— « ونعم هذا الرأي أيضاً ، فما الذي تم في أمر هذه الفتوح التي يقوم بها إخوتك ؟ » .

— « هذا أخي شمس الدولة قد أذنت له في دخول (النوبة) فاتحاً ، فلما لم يجد بها شيئاً نافعاً عاد وطلب أن يسير لفتح (اليمن) ، فأذنت له في ذلك ، وهنا ذهب إلى هناك ويقتل الخارجي الذي ظهر بتلك البلاد ، وقد بلغ من حق هذا الخارجي أن دعا الناس بها إلى قبر أبيه بعد إذ جعل عليه قبة من ذهب وحشاه كمية ، وحمل الناس على حجه والانصراف من مكة » .

— « وإنه من فتى جاهل ، فهو عندي أشد عباء من هذه الفئة التي أورثنا الله ملكها وأذن لنا في [illegible] في القصر الفاطمي لا يحصل فيه تلاؤم [illegible] لا يتناسلوا ، ألا فكرت أيضاً في [illegible] موطنها الأول ، في بلاد المغرب [illegible] » .

— « هذا ما فكرت فيه [illegible] فيه الخادم بهاء الدين قراقوش وهو جندي باسل ، وفارس غيور متصف بالأمانة ، ألا ترى مقدرته في سياسة القصر الفاطمي منذ تسلمه إذ لم يدع شيئاً يخرج منه أو يدخل فيه إلا بإذنه » .

— « ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الآمال ، ومولاك نور الدين بالشام لا يرضى عن هذه الفتوح التي تشتغل بها عنه الآن ويرى فيها إضاعة للوقت وتبديداً للمال واجهاداً للترك الذين عليهم أن يحموا أنفسهم غارة الفرنج في هذه الجهة التي تفصل الآن بينك وبينه — وهي جهة (الكرك والشوبك) . وقد بات هؤلاء الفرنج لا يخشون إلا ضراب الترك ولا تقشعر جلودهم إلا من لقائهم في مواطن القتال » .

وكان القاضي الفاضل دخل منذ برهة صحت له بأن يسمع طرفاً من هذا الحديث فقال :

— « يأذن لي المولى أن أقول في هذه المسألة الأخيرة رأياً أديره في ذهني منذ أيام » .

قال الشيخ : « قل يا عبد الرحيم » .

قال : « الذي أراه عندي يا مولاي أن نعين نور الدين في محاربة الصليبيين الذين يحتلون المنطقة التي تفصل الآن بيننا وبينه ، فهي وإن كانت في أيدي أولئك الكفرة الظالمين ، بل في يد طائفة منهم هو (أرناط)[1] المعروف بإيذائه المسلمين ، إلا أنها يا مولاي بمثابة الحاجز الذي يفصلنا الآن من شر نور الدين ، ويجعلنا في مأمن منه حتى نشد أمورنا ونثبت أقدامنا ونكون بحيث لا يستطيع أن يخرجنا من ديارنا بمجرد رغبته ، أو لأنه يريد أن يحتم [illegible] يصير لنا أن نتخذ له منبته » .

قال الشيخ : « والرأي عندك إذن أن تبقى هذه المنطقة [illegible] » .

[illegible] الصالحة الآن في أن نحق [illegible] الشام » .

فالتفت الأمير الشيخ للسلطان وقال : « وأنت يا صلاح الدين — ما الذي تراه في هذه المشكلة ؟ » .

فسكت السلطان برهة قصيرة ثم قال : « ... مسألة يجيب عنها صلاح الدين القائد الكردي السياسي إجابة لا يرضى عنها صلاح الدين التابع القديس ... ؟ ! » .

فابتسم « الشيخ » ابتسامة عريضة ونظر إلى ابنه نظرة فيها غير كثير من الغرابة ثم قال : « الآن حتى تقدم بك العمر واستحكمت ... !! — قل لنا ما الذي تنبيه بكل ذلك ؟ » . قال السلطان :

« المشكلة كلها في رأي الفاضل . فالسياسة هي التي أملت عليه هذا الرأي الحكيم ، والسياسة هي التي قد تجعلنا في مخالفة نور الدين . وإنا أعلم أن الخلافة لا تتفق

(١) وردت [illegible] في الكتب الأوروبية .

والفرض الذى جئنا من أجله إلى مصر » ، وهنا أطرق الشيخ طويلا كأنما يدير هذا الرأى فى ذهنه ويزنه بميزان عقله ثم رفع رأسه وقال : « وأنا أيضا قد مال إلى مثل هذا الرأى ».

قال السلطان « وما تقول يا عبد الرحيم فى هذه الفتوح التى أشغل بها إخوتى ليكسبوا لأنفسهم الشهرة فى ميدان الجهاد ، والمال الذى يقوم بنفقتهم فى تلك البلاد ؟ »

قال الفاضل « آفة هذا الرأى يا مولاى أنه يستنفد جميع ما تملك من المال ؛ وصاحب الشام ينتظر فيما أظن منا أن نقرر له مالاً نحمله إليه يستعين به على كلف الجهاد الذى وهب حياته له ».

قال السلطان « فإننا قد بعثنا له بهدية من نفائس القصر الفاطمى ، وما أكثر هذه النفائس التى [illegible] أنفسها ، ورأيت أننا أهدينا إلى الملك [illegible] نور الدين [illegible] أن ينفذها فأجدها وبالغ فى إعدادها [illegible] (الرسالة) التى سارت بالهدية إلى صاحب الشام [illegible] »

قال الشيخ « حسن كل ذلك [illegible] ولكن [illegible] أعلم من أخلاق نور الدين أن هذه الهدية على عظمها لن تسره وإنه . . . »

وأراد الشيخ أن يتم كلامه لولا أن طرق فى تلك اللحظة رسول أتى من قبل نور الدين ويحمل رسالة إلى صلاح الدين ، يأمره فيها أن يجمع العساكر المصرية ويسير بهم إلى بلاد الفرنج وينزل على (الكرك والشوبك) ويحاصرهما ريثما يجمع هو عساكره ويسير إليهما ، ثم يجتمعان هناك على محاربة الفرنج والاستيلاء منهم على هذه المنطقة التى تفصل بينهما وتقف حجر عثرة دون الغاية التى يعملان لها وهى مطاردة الفرنج .

وقرأ السلطان الرسالة التى بعث بها نور الدين ، ثم دفع بها إلى أبيه ليقرأها وقرأها معه عبد الرحيم . ونظر الثلاثة كل إلى الآخر نظرات سريعة ، وسكتوا سكوتا مريبا ، ما لبث أن قطعه عليهم الأمير نجم الدين بقوله يخاطب الرسول :

« وما بال الهدية التى بعث بها صلاح الدين إلى مولاه العظيم ؟ » .

قال الرسول : « أكبر الظن عندى أنها يا مولاى لم تقع منه موقعا » .

قال الشيخ : « عجبا يملأ القلب ! ولم ذلك ؟ »

قال الرسول : « بينا أصحاب مولاى نور الدين يطيلون النظر فى هدية السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ويظهرون إعجابهم بها ، ويتخيلون نفائس القصر الذى حوى الكثير من أمثالها ، إذ بمولاى نور الدين يخاطب نفسه بصوت سمعه الذين معه ويقول : ما أغنانا الذهب فى [illegible] مصر وما بنا إلى الذهب حاجة ، ثم تمثل بقول أبى تمام :

[illegible] الذهب المرزق بكثرة
[illegible] الحصى وبه فقر إلى الذهب

[illegible] السلطان [illegible] الرسول بالاطلة ويغير مجرى حديثه ثم قال له :

« قل لمولاى نور الدين إنى لن أتأخر عن الذهاب بالجند إلى الكرك » .

فرجع الرسول إليه يبلغه كل ذلك . ورحل نور الدين من دمشق إلى الكرك وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول ، وذلك لاختلال البلاد ، ورغبة أهلها فى الثورة على النظام . ورأى الكتاب نور الدين فغضب لذلك غضباً ذهب بكل حلمه ، وشق ذلك على نفسه ، وعزم على دخول مصر وإخراج السلطان منها .

وبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده وخاله شهاب الدين واستشارهم ، فكلهم أشار عليه بالصمت وبالصبر ، ثم قام من بينهم فارس شاب حاد الطبع ، هو ابن أخى السلطان واسمه (تقى الدين عمر) فقال :

« ما لنا نخاف نور الدين — وهو إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن بلادنا بسيوفنا هذه » .

فوقع هذا الكلام موقعاً حسناً من نفس السلطان وهمّ أن يظهر الرضى به ، وأحب أن يتكلم في ذلك لولا أن سبقه أبوه بقوله يخاطب تقي الدين عمر :

« اقعد أيها الصبي الأزرق ، اقعد أيها الشاب الطائش ، لقبحما تشير به . ألهذه الغاية ؟ أكل مال المسلمين ؟ ولهذه الغاية أمرنا عليكم نور الدين ؟ »

ثم اتجه إلى السلطان وقال له :

« أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك — أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ » قال : لا .

قال نجم الدين :

« فوالله لو رأيت أنا أو رأى خالك نور الدين قادماً ما استطعنا إلا أن نترجل إليه ، ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا [illegible] هكذا — فكيف يكون غيرنا ؟ [illegible] الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وإنما هذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن شاء عزلك ، ثم لا يحتاج إلى الحرب . هنا لهذه الغاية ؛ يأمرك بكتاب مع نجّاب (رسول) حتى تقصد خدمته ويولى البلاد بعدُ من يريد » . ثم التفت كذلك القائد الشيخ إلى الجند وقال : « واعلموا جميعاً أيها الجند — نحن مماليك نور الدين وعبيده ، وليفعل بنا ما يريد ، إن شاء بقينا في مصر ، وإن شاء نَأَينا على رأيه وخرجنا من مصر ، ونحن هنا جنوده وأتباعه ، باسمه فتحنا ما فتحنا ، وباسمه نفتح كل بلد نريد بعدُ أن نفتحه » .

وتفرق الجند بعد ذلك ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين يعلمونه كل ذلك ، ثم خلا الشيخ بابنه وقال له : أنت يا ولدي جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد ، جعلك غرضه الذي يرمي إليه ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، بل تراهم جميعاً يسلمونك إليه . وأما الآن — بعد هذا المجلس — فسيكتب إليه أكثرهم ويعرفونه قولي . وتكتب له أنت أيضاً وترسل في هذا المعنى وتقول له :

« أي حاجة إلى قصدي أيها المولى ؟ يجيء نجّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، ويأتي بي إليك ، فهو إذا سمع هذا منك عدل عن قصدك واشتغل بسواك » .

قال السلطان « صدقت يا أبي ، وكنت من الناصحين . إني من أجل هذا أفكر في الذهاب بنفسي إلى الكرك ، فإذا وصلت إلى هنالك بعثت أنت في طلبي بحجة اختلال [illegible] الشيخ « اذهب على بركة الله » .

وذهب السلطان إلى ذلك المكان ، وعلم مولاه بهذه [illegible] السلطان بما في نفسه تهمة العصيان ، ثم [illegible] إلى بلاده ، وإنه لفي الطريق إليها [illegible] نبأ ، فيه ما عظمت به لوعته ، واشتدت كما يقول القائل به حسرته وروعته ، ذلك النبأ هو موت أبيه نجم الدين بسبب وقوعه عن فرس له كان ركبه في أثناء لعب الكرة . فأخذ الفاضل يهوّن على صاحبه هذا المصاب العظيم ، ويقطع الطريق بحديثه له عن الصبر والصابرين ، ويتأسى معه بقول الذي يقول :

وتخطفتـه يد الردى في غيبتي
هبني حضرتُ فكنت ماذا أصنع ؟!

وذلك حتى دخلا مصر . وبينما هو غارق في هذه الأحزان ، وبينما هو خائف في الوقت نفسه من مداهمة صاحب الشام ، إذ به يسمع بموت هذا الرجل أيضاً ، فيحزن عليه ، ولكن يشعر في قرارة نفسه أن حزنه لموت نور الدين قد خفف شيئاً كثيراً من لوعته على أبيه نجم الدين ، وأزاح ضيقاً عن صدره كاد يتلفه ويودي بمستقبله ... ؟!

سيرة أحمد بن طولون

في دار الكتب الظاهرية بدمشق طائفة من الكتب المخطوطة النادرة يجب العناية بأمرها، وإعدادها للطبع لنشرها بين الناس محافظة على ذلك التراث العظيم الذي خلفه لنا الأقدمون، ورغبة في إذاعة ما فيها من الفوائد العلمية، والطرائف الأدبية التي تعرضت بذكرها، ومن تلك الكتب النفيسة التي حفلت بها المكتبة الظاهرية كتاب سيرة أحمد ابن طولون لأبي محمد عبد الله بن محمد البلوي، الذي عني بنشره الأستاذ العلامة محمد كرد علي بك لأن في نشره «إحياء مادة جديدة في تاريخ مصر والشام، ولوناً طريفاً من أدب عصره الجميل فيه حلاوة وطلاوة، ولأن فيه ألفاظاً فصيحة ومعربة في شؤون الحياة كانت مألوفة في زمن المؤلف، ونحن في حاجة إليها اليوم [illegible] واقعية تدل على كياسة ابن طولون [illegible] الفارق من حكمه وحنكه، ففيها متعة النفس والعقل، وصورة صادقة من صور ذلك المجتمع». وقد أنفق الأستاذ جهداً كبيراً في تحقيق هذا الكتاب لا يدرك كنهه إلا من زج بنفسه في هذا المضمار، ووازن من عنائه في رجعه إلى أصله أن المخطوطة لا نظير لها يمكن أن تقابل عليه، ومع ذلك عارية من النقط، فتعالت فيها الأرَضَة، وأصابها البلل فطمس بعض كلماتها. ولكن ذهن الأستاذ الثاقب، وعلمه الواسع وصبره الدائب قد أعانه على حل معمياتها، وفك رموزها، وكشف له عن كثير من أوجه الخطأ، وألوان التحريف حتى خرج الكتاب في تلك الصورة البديعة أقرب ما يكون من الأصل، وأدنى ما يكون من الصواب. وقد أحسن الأستاذ صنعاً في كتابة الحواشي التي ذيل بها بعض الصفحات لتفسير ما فات المؤلف من أنباء ابن طولون. وكذلك أحسن كل الإحسان في وضع الفهارس للأعلام والفصول تدل عليها، وترشد إلى مضمونها. والكتاب من أهم الكتب التي تجمع بين الأدب والتاريخ والاجتماع، وتكشف عن حياة عظيم من عظماء [illegible] الذين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم، [illegible] إليه كل سبيل حتى نالوا ما رغبوا فيه، وحققوا آمالهم، ومكنوا لسلطانهم في الأرض، ولقد كرمهم في التاريخ. وقد سلك المؤلف في تأليفه طريقة جميلة لا

أما المسلمون فجزعوا جميعاً لموت هذا البطل، وضجوا بالدعاء له أن يجزيه الله خير ما عمل، ولهجوا يومئذ بذكر هذه القصة التي شاعت بينهم على أنها آية من آيات الجهاد الديني وهي:

«أنه لما نزل الفرنج دمياط في الحصار الذي قال فيه نور الدين محمود: إني لأستحيي أن يراني الله متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج. ثم في الليلة التي رحل الفرنج فيها عن دمياط رأى إمام لنور الدين محمود في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: أخبر نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة. فقال: يا رسول الله ربما لا يصدقني، فاذكر له علامة يعرفها، فقال له النبي: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت اللهمّ انصر دينك ولا تنصر محموداً، ومَن هو محمود الكلب حتى تنصره؟ قال الإمام فانتبهت من نومي ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتهجد فيه حتى يطلع الصبح. قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين محمود: اذكر العلامة كلها. وألح عليّ في ذلك فقلتها فبكى رحمه الله رحمة واسعة وصدق الرؤيا».

فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج عنها».

عبد اللطيف حمزة

الذوق ، ويرضى القلب ، ويروق العقل ، وتشوق النفس إلى المضى فى قراءة الكتاب حتى تفرغ منه . يروى المؤلف الخبر بسنده القصير على نحو ما كان يصنع الرواة فى القرون الأولى ، ولا يتوارى خلف روايته بل يطالعك بشخصه ، ويصارحك برأيه ، ويصف لك شعوره أحياناً ، وقد يحلل ما روى ، ويعلل ما يقص فى بعض الأحايين ، وهو مولع بتنسيق الأخبار ، وترتيب الأبواب ، كل ذلك بأسلوب سهل يسير لا تصنّع فيه ولا تكلّف . وقد ساعده أسلوبه العذب ورغبته فى الإطناب ، وحبه للتفوق على من سبقه على رسم صورة جميلة لابن طولون ، ولا أظن أن حاكما من الحكام قد ظفر بمثلها على كثرة الصور ، وتعدد السير التى صنعت لهم ، ومرد ذلك فيما أرى إلى ابن طولون نفسه وما كان عليه من فطنة وذكاء ، فقد حدثنا البلوى فى مواضع شتى من كتابه أنه كان يستكتب كتابا يسميهم « كتاب السر » وأنه أوصى أحدهم [illegible] صاحب خبر على ألفاظى ، فانظر [illegible] ما يجرى بينى وبين من يخاطبنى من صغير وكبير ، [illegible] وخطابى إياه وجوابه لى ، وأعرضه علىّ بالعشى » ، وأن كتابه كانوا يرعون هذا أشد الرعاية .

ونقل أيضا حديثاً طويلا جرى بين أحد أصحاب ابن طولون ، وبين بعض العلماء ، وأن هذا الصاحب لما حدث بما جرى قيل له : كيف حفظت هذا الكلام ؟ فقال كان كاتب السر يكتب كل ما يجرى ولا يسقط من ذلك شيئا فسألت أحمد بن طولون أن يأمر الكاتب بأن يطلق لى نسخة فأمره بذلك . وكان هؤلاء الكتاب فى داخل القصر وفى خارجه يكتبون كل صغيرة وكبيرة ، ويرفعونها إليه . ومن ثم كان هذا الكتاب كأنه طائفة من التقارير والمذكرات التى كتبت فى وقتها ، ويرجع الفضل فى حفظها إلى أحمد بن يوسف كاتب الدولة الطولونية وأول مؤلف لسيرتها . وقد اعتمد البلوى على ما كتبه أحمد بن يوسف وزاد عليه طائفة من الرسائل والوثائق والأنباء عن مرض ابن طولون وأيامه الأخيرة . وفصل القول فى نشأته وأخبار حروبه وما كان بينه وبين ولده العباس وغلامه لؤلؤ . وذكر كل محمدة من أنباء ذكائه ، ودقة ملاحظته ، وقوة فراسته وحسن سياسته وعدله ورحمته ، ومفاخره ومكارمه إلى غير ذلك من الصفات والميزات التى خلعها على ابن طولون . وإن أُخذ على المؤلف شىء فهو هذا الغلو فى الدفاع عن مساوىء ابن طولون ، ومحاولته تبرير أعماله السيئة التى ارتكبها فى شطط وإفراط . ويؤخذ على المؤلف أيضا أنه أسرف فى ذكر القصص الغريبة ، والحوادث العجيبة التى يستحيل على العقل تصديقها ، ويصعب على الفكر قبولها ، والتى إن أرضت الفن فلن ترضى العلم ، وإن ظفرت بإعجاب الأدباء فلن تظفر بتأييد المؤرخين . وما أشك مطلقا فى أن تلك الأنباء قد اخترعها [illegible] التاريخ . وليس ذلك بمستبعد من رجل [illegible] الرجال أنه صنع « رحلة الشافعى » [illegible] التصنع والتطويل ، وأيّا ما كان الأمر فالكتاب جدير بالتقدير لأن فيه حقا كثيراً ، وأدبا عظيما ، وأيسر ما يقال فيه : إنه من أهم مصادر الأدب والتاريخ المصرى التى تنير تلك الفترة من تاريخنا المجهول . وهناك بعض ملاحظات عنّت لى أثناء قراءتى السريعة لهذا الكتاب أحب أن أنبه عليها رغبة فى تصحيح الكتاب ، ومساهمة فى رجعه إلى أصله ، وبذلك أكون قد أديت بعض واجبى كقارىء نعم حينا من الزمان بقراءة هذا الكتاب الطريف .

١ — فمن ذلك ما جاء فى ص ٧٦ « فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه فسقط الغلام فوقف عليه أحمد بن طولون وأخرجت يد الفرس فنظر فإذا بشق ففتح وأصاب من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار ، وهو المطلب الذى شاع خبره »

والصواب «إذا بلغ» .

٢ — وفي ص ٩٦ : «الحارث بنفسه ساعة حربا شديدة بانت فيها جرأته وجزالته» ولا معنى لوصف الجزالة هنا ، والصواب وجراءته .

٣ — وفي ص ١٢٠ «وقدم بين يديه صينية فيها كوز ماء ، وقدح نصيف ، وجعل بين يدي الجارية صينية فيها قدح لطيف» وصواب نصيف : «نظيف» حتى تكون هناك مشاكلة بين نظيف ولطيف .

٤ — وفي ص ١٤٢ «سنح له ذكر كاتب شاهده لحف على قلبه وافترس فيه خيرا» والصواب : تفرّس .

٥ — وفي ص ٢٨٧ : «فسقاني يوما وقال لي : أتعرف إماما يصلي بالمقامة في موضع كذا فقلت له : نعم أنا أعرف المسجد وما أعرف الرجل» وعلق الأستاذ أن كلمة «المقامة» محرفة وقال : كذا في الأصل ولعلها «الناحية» وللأستاذ العذر في هذا الظن لأن «المقامة» لفظة مصرية أصيلة تعني «القبر» [illegible] الاستعمال في هذه الأيام . وبعد [illegible] محمد كرد علي بك على عنايته بنشر هذا الكتاب النفيس ونعده هدية كريمة من الشام إلى مصر نتقبلها شاكرين . وإني بهذه المناسبة أقترح على الأستاذ أن يحدثنا عن نوادر المخطوطات في الشام . ولئن كان هذا الحديث منها مفيدا وممتعا في كل وقت فهو في هذه الأيام التي يستحيل فيها النشر لغلاء الورق أعظم فائدة وأكثر إمتاعا .

السيد أحمد صقر

قصيدة الشاكي

جاءنا من أحمد الشرباصي كلمة يقول فيها إنه بعث بالقصيدة للمجلة ، ويقول : «فأنا لم أبعث شيئا كهذا إلى المجلة ، وما كان لمثلي أن يفكر في اقتراف ذلك الإثم الأدبي الشين .. وما حاجتي إلى ادعاء قصيدة مشهورة لشاعر معروف طوته يد الردى ، فأصبح في ذمة التاريخ ، وله من الحرمة ما للتاريخ ؟ ... ما حاجتي إلى ادعاء هذه القصيدة وليس قول الشعر علي [illegible] ، وإني كنت قد قلت ما يقرب من سبع قصائد ، نشرت في الرسالة الأسبوعية والصباح والإسلام ؟ ... ثم كيف لي ادعاء هذه القصيدة ، وقد تناولتها بالتحليل والنقد في إحدى محاضراتي بكلية اللغة العربية ، وقد حضرها مئات ومئات من شباب الأدباء ؟» .

صدى الوحدة

آهةٌ حرّى بأرجاء الدجى رُددت أصداؤها في مخنقي
أشرب الحزن كؤوسا كلما أترعت أرهقتها من أرقي
صُوِّبتْ من كل صوب أسهم
لست أدري أيّ سهم أتقي ؟
كل آمالي تلاشت مثلما يتلاشى النورُ عند الغسق
وتساوى الليل عندي والضحى

رب [illegible] ليـــل [illegible] لم يبق
جعد الشعر محزونا إلى [illegible] من هموم أوقدت لي حرقي
[illegible] أغرقت صبحي وعمت مغسقي
[illegible] أبصر النور بعرض الشفق
أبصر الشمس [illegible] يتوارى في ظلال الأفق
أبصر الأزهار تذوي مثلا صوت الأفراح في مختنقي

(بغداد) جمعية إخوان الأدب — يحيى الحيدري

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ — بعابدين بمصر